مخطط شال وآثاره في تطور حرب التحرير الوطني

د. صالح بلحاج

تمهيد

مرت السياسة الديغولية إزاء حرب التحرير الوطني بأطوار متعددة. في طور أول امتد من خريف 1958 إلى خريف السنة الموالية، تركزت السياسة الديغولية على التصعيد العسكري والإصلاحات الاقتصادية (مخطط قسنطينة) والقانونية (إلغاء نظام الهيئتين وفتح أبواب الوظيفة العامة أمام الجزائريين). كان الهدف من التصعيد العسكري القضاء على جيش التحرير وإنهاء المقاومة المسلحة. وكان للإصلاحات هدف مزدوج : من ناحية، تحسين أوضاع الجزائريين بخلفية تشجيعهم على التخلي عن فكرة الاستقلال ؛ ومن ناحية أخرى، تكوين نخبة جزائرية معتدلة، سميت *قوة ثالثة*، مستعدة للمشاركة في تسيير الشؤون الجزائرية والبقاء في "الإطار الفرنسي". حقق التصعيد العسكري لفرنسا انتصارات في الميدان، لكنها لم تكن كافية لحسم الموقف، مما أثبت لديغول أنه لا أمل يرجى من الخيار العسكري. وفشلت سياسة الإصلاحات بدورها، ولأسباب متنوعة، في تحقيق الأهداف المسندة إليها. موضوع حديثنا في هذه المقالة هو الجانب العسكري للسياسة الديغولية في فترة متميزة من تاريخ حرب التحرير الوطني (أواخر 1958 ــ 1960)

كان جيش التحرير قد بلغ قمة تطوره في سنتي 1957-1958 ثم بدأت مرحلة الركود والتراجع بالنسبة إليه، وصادفت هذه المرحلة عهد الجنرال ديغول الذي بلغت فيه حرب التحرير ذروة التصعيد العسكري والقمعي، تحديدا في سنتي 1959 و 1960 ــ لاسيما الأولى منهما ــ؛ وهذا بجميع المقاييس الحربية المعروفة، من الوسائل المسخرة، إلى القوات المستخدمة، إلى عنف المعارك

واتساع نطاقها، إلى حجم الخسائر المسجلة، إلى الأضرار الناجمة في مختلف المجالات. شهدت تلك الفترة ما هو معروف في التاريخ العسكري للثورة وعند جميع الجزائريين الذين عايشوها ــ جنودا ومناضلين وشعبا ــ بعبارة "مخطط شال" نسبة إلى الجنرال الذي قاد الجيش الفرنسي خلالها وقام بوضع الخطة[1] وتطبيق الجزء الأكبر منها. أبناء الأرياف الذين يتذكرونها جيدا يسمونها أيضا "زمن الحلف الأطلسي"، ربما لأنهم شاهدوا قوات لم يتصورا من قبل أنها تتوفر لفرنسا وحدها، ولأنهم اكتشفوا معدات وطائرات حربية جاءت بالفعل من الحلف الأطلسي. اقترن المخطط باسم شال لكن هذا الأخير مدين بكل شيء إلى ديغول الذي عينه وكلفه بوضع استراتيجية حربية جديدة، ثم درسها معه ووافق عليها ووفر له الدعم اللازم لتنفيذها. لذلك ربما كان الأصح أن نتحدث عن "مخطط ديغول ــ شال". سنتناول في ما يلي هذا المخطط من جانبيه النظري والعملي، وننتقل بعد ذلك إلى الاستنتاجات السياسية التي قاد إليها في ضوء ميزان القوى الذي أفرزه.

1- لماذا التصعيد العسكري ؟

في ديسمبر 1959، عين الجنرال ديغول موريس شال Maurice Challe، قائدا أعلى للجيش الفرنسي بالجزائر، خلفا للجنرال صالان Salan، الذي قاد حرب الجزائر منذ 1956. وضع القائد الأعلى الجديد بسرعة خطة شاملة جديدة لإدارة الحرب، وعرضها على ديغول، فأبدى موافقته عليها وارتياحه

[1] حسب بعض المصادر، كان صالان هو الذي وضعها ثم قام شال بضبطها وتطبيقها. أنظر :
G.MEYNIER , *Histiore intérieure du F.L.N.*, 1954-1962, CASBAS Editions, Alger, 2003, p. 299.

لمضمونها بعد إدخال التعديلات التي رآها مناسبة. لابد أن يكون الجنرال ديغول قد قال لنفسه في تلك اللحظة إنه قد أحسن الاختيار، فقد كانت الخطة، في رأيه، كفيلة بتحقيق هدفه من تكثيف الحرب. فما هي يا ترى الدوافع التي حملت ديغول على ذلك التوجه الاحترابي ؟

إذا نظرنا إلى الوضع العسكري الذي وجده ديغول عندما عاد إلى السلطة أمكننا القول إنه كان من المتوقع، على نحو منطقي تماما من وجهة نظر النظام الديغولي الجديد، أن يتم التصعيد الذي وقع، لأسباب عديدة من أهمها :

— سوء الوضع العسكري بالنسبة إلى الطرف الفرنسي في ذلك الوقت. ينبغي ألا ننسى أن المبادرة كانت، على الأقل منذ 1956 وإلى غاية ربيع 1958، لجيش التحرير في أجزاء واسعة من البلاد، وأن الجيش الفرنسي كان أثناء تلك الفترة غارقا في أعمال "التربيع" معانيا من "عقدة الأسلاك الشائكة"[2] إلى درجة جعلت قطاعات واسعة من الجيش الفرنسي والطبقة السياسية الفرنسية تخشى هزيمة عسكرية في الجزائر من النوع الذي وقع في فيتنام. وازداد التخوف والقلق من هذا مع استمرارية الأزمة وانعدام الاستقرار في السلطة السياسية الفرنسية، فأدى ذلك إلى إسقاط الجمهورية الرابعة بواسطة انقلاب 13 ماي 1958 الذي كان من أول مطالبه إبقاء الجزائر فرنسية بتصحيح الوضع العسكري وإبعاد شبح الهزيمة وتحرير الجيش الفرنسي من العقدة الفيتنامية. ذلك أنه لو تكرر في

[2] التربيع quadrillage، وعقدة الأسلاك الشائكة complexe des barbelés، من العبارات التي كانت تستخدم للدلالة على مهام الحراسة الساكنة والرقابة التي شكلت القسم الأساسي من نشاط الجيش الفرنسي في الجزائر قبل 1959، مقابل العمل الهجومي الذي ميز نشاطه ابتداء من مطلع 1959.

الجزائر ما حدث في الهند الصينية لكان ضربة في الصميم لمصداقية الآلة العسكرية الفرنسية وإضعافا شديدا لمركزها تجاه حلفائها وخصومها معا. وديغول الذي كان يقول: إن ضعف الجمهورية الرابعة قد أوقع بلاده تحت سيطرة أمريكا والاتحاد السوفييتي، واعداً مواطنيه بأنه سيعيد إلى فرنسا ما ينبغي أن يكون لها من نفوذ وهيبة في المسرح الدولي، لم يكن من مصلحته أن يتعرض لمثل تلك الهزيمة. عندما عاد إلى السلطة كان واعيا تماما وعارفا بالوضع السيئ الذي يتخبط فيه الجيش الفرنسي، ومن هنا ضرورة أن يكون تحسين ذلك الوضع على رأس القائمة في أولويات سياسته.

– عاد ديغول إلى الحكم دون تصور واضح في ما يخص الحل السياسي للمشكلة الجزائرية، ولكنه كان رافضا في آن واحد الاندماج والاستقلال، مفكراً في صيغ أخرى تدور كلها حول فكرة "جزائر تتمتع بالاستقلالية ومن دون الاستقلال". غير أن تمرير هذا الحل كان بحاجة إلى شروط في مقدمتها تحديداً القضاء على جيش التحرير. وعلى هذا الشرط يتوقف كل شيء. إذا تم سحق جيش التحرير فإن هذا سوف يوفر الظروف الأمنية اللازمة لتحقيق الإصلاحات المزمع إجراؤها، وسيبعد الخوف عن "الجزائريين المعتدلين" المستعدين للتعاون مع فرنسا و "البقاء في الإطار الفرنسي"، وسيؤدي أيضا إلى تراجع مطلب الاستقلال في الأوساط الجزائرية بعد القضاء على التنظيم العامل من أجله. باختصار، لا يمكن أن يتم بناء "جزائر جديدة معتمدة على الجزائريين ومرتبطة ارتباطا وثيقا بفرنسا"[3] مادام في الجزائر تنظيم مسلح يقاتل من أجل

3- تلخص هذه العبارة تصور الرئيس الفرنسي لمفهوم *المشاركة* الذي دافع عنه بشدة، وقد تكررت بانتظام في أحاديثه عن الجزائر ابتداء من إعلان تقرير المصير في 16 سبتمبر 1959.

الاستقلال، ولا يرضى عنه بديلا. في نهاية التحليل، كانت سياسة التصعيد العسكري مندرجة ضمن استراتيجية محاربة الوطنية الجزائرية.

– في جميع الأحوال، كانت ظروف الحرب ومعطياتها تقتضي من ديغول أن يجرب خيار الحل العسكري. إذا نجح فسيكون قد حقق مراده وإذا لم ينجح فإنه سيكون قد جربه، وسوف يستخلص الاستنتاجات الناجمة عنه. وعندها، إذا سلك طريقا آخر، فإنه سوف يكون مدعوما من قبل جزء هام في الرأي العام الفرنسي؛ لأن هذا الرأي سيكون وقتئذ قد وقف على حقيقة الوضع فأصبح معارضا للحرب وللتضحيات المفروضة عليه باسمها. لكن ثمة مؤشرات تدل على أن ديغول، وهو مقبل على مضاعفة المجهود الحربي وتكثيف العمليات العسكرية، كان طامعا إلى حد كبير في تحقيق انتصار عسكري نهائي. يستشف ذلك من مواقفه العسكرية الاحترابية العائدة لتلك الفترة.

نجد واحدا من تلك المواقف في "سلم الشجعان"[4] الذي دعا الجنود إليه. كان الهدف من تلك المناورة زرع روح الإحباط والانقسام في صفوف جزء من المقاتلين لدرجة تحملهم على تسليم نفوسهم، على أن يتكفل الجنرال شال بالقضاء على الباقي، فيتم بذلك القضاء التام على جيش التحرير. وتتجلى أيضا مراهنة ديغول على إمكانية الانتصار العسكري النهائي في الأهمية الكبرى التي

4- في ندوة صحفية عقدت بمقر رئاسة الحكومة الفرنسية بتاريخ 23 أكتوبر 1958 اقترح الجنرال ديغول على جنود جيش التحرير "سلم الشجعان" داعيا "ممثلي المنظمة الخارجية" للجبهة للذهاب إلى باريس من أجل النقاش حول كيفيات "إنهاء المعارك". يوم 25 الموالي أصدرت الحكومة المؤقتة بيانا أعلنت فيه رفض الاقتراح الذي اعتبرته دعوة إلى الاستسلام.

منحها لتعيين الجنرال شال وللخطة العسكرية الجديدة التي قام القائد الجديد بوضعها. عندما ننظر إلى المواقف الحربية الفرنسية آنذاك على أعلى المستويات (رئيس الجمهورية، الحكومة، قيادة الأركان، ووزير الدفاع)، نجد أنفسنا أمام تفكير جاد ومراهنة حقيقية على إمكانية الحل العسكري النهائي.

تحدث الجنرال إيلي Ely، عن بداية عهد شال في الجزائر بهذه العبارات : "في اجتماع لجنة الدفاع يوم 27 فيفريي 1959، نال شال المصادقة على مخططه العملياتي وعلى إبقاء القوات الفرنسية بالجزائر في المستوى الذي طلبه. في ذهن الجنرال ديغول، كان واضحا أن الأمر يتعلق بالقضـــاء النهائي على المتمردين في وقت قصير جدا"[5]. وكان هذا الاجتماع قد انعقد بعد لقاء خاص بين ديغول وشال تقدم فيه الثاني للأول بطلبين لكي يتمكن "من العمل" بالجزائر. الأول هو زيادة قوات *الحرْكة* التي كان تعدادها آنذاك 000 26 رجل[6] على حد قوله، فطلب أن يرفع هذا العدد إلى 000 60 رجل. والطلب الثاني هو الاحتفاظ بالقوات العاملة في الجزائر، من دون نقصان. أبدى ديغول تحفظه حول الطلب الأول لكنه وافق على الثاني ملبياً كل الرغبات التي عبر عنها شال في ما يخص تطوير الأسلحة والمعدات المستخدمة.

وقد كتب الجنرال ديغول من جهته عن تعيين شال، وعما كان ينتظره منه العبارات التالية :

> بتعيين شال قائدا عاما للجيش...كنت أريد أن تتخذ العمليات وتيرة ديناميكية وأن تؤدي في جميع المناطق إلى

5-Paul ELY, *Mémoires*, t. II, Plon, Paris, 1969, p. 400.

6 – توجد فقرات من الحوار الذي دار بين ديغول وشال قبيل مجيء الأخير إلى الجزائر في :
Y. Courrière, *L'heure des colonels*, p. 531-532.

التحكم التام في الميدان... وقبل أن يذهب إلى الجزائر كنت قد درست وإياه المشروع الذي أعده ووافقت عليه...وتضمن ذلك الوحدات التي ستقوم بشن الهجمات والتي كان لابد أن تخرج من التربيع العام وتنظم خصيصا لذلك، وتدعم بالرجال والعتاد وتزود، وهذا هو الأهم، بأعداد كبيرة من الطائرات المروحية... واتخذت التدابير الضرورية لكي يبدأ الطور الجديد الحاسم في ربيع 1959[7].

كان المطلوب والمنتظر من شال أن يحرز انتصارا عسكريا تشاهده المتربول في أقرب وقت ممكن، وأن يقضي نهائيا على جيش التحرير في سنة 1959 دون التردد حول الوسائل المستخدمة ولا الاقتصاد في أي منها. وكان رئيس الحكومة الفرنسي، مشال دوبري، قد حدد الآجال في اجتماع مع القادة العسكريين بمقر قيادة شال يوم 9 فيفريي 1959 قائلا :

سيعاد النظر في مشكل حجم القوات، ولكن لابد من انتصارات عسكرية سريعة تحس بها المتروبول في الربيع القادم، بحيث يكون بعد سنة من 13 ماي (1958) في مقدور الرأي العام أن يدرك بأن شيئا ما قد تغير على الصعيد العسكري... لابد أن يكون باستطاعتنا أن نعلن الانتصار النهائي في شهر جويلية[8].

7-Ch. De Gaulle, Le renouveau, p. 67 .

8 - كما ذكره Claude Paillat، في :

La liquidation, 1954-1962, Robert Laffont, Paris, 1972, p. 506.

وكلف، إذاً، موريس شال بتوجيه الضربة القاضية لجيش التحرير. في ديسمبر 1958، كان هذا الرجل في العام الثالث والخمسين من العمر. لم يكن من الضباط المحبين للظهور واستعراض القوة والأوسمة والناشين ولا يصنف ضمن الضباط "اللامعين" ولا ذوي الذكاء الحاد، كما أنه بخلاف الكثير من الضباط السامين الفرنسيين، لم يكن حاملا "أسطورة" الهند الصينية. على العكس من ذلك، كان الرجل بطيئا إلى حد ما في حركته وكلامه، ولولا النجوم اللامعة فوق كتفيه لحسبه الناظر إليه فلاحا هادئا لا ضابطا ساميا. وهو مع ذلك *جنرال ماجور* في الطيران، يعني أنه أقل وزنا في نظر العسكريين بالجزائر من جنرالات القوات البرية التي تعتمد عليها حرب الجزائر بمعدل 85%، من أمثال صالان وغراسيو وماسو وغيرهم. لكنه معروف في قيادات الأركان الفرنسية بعناده وقدراته التنظيمية واستعداداته الاحترابية. في 1956، ساهم مع الجنرال إيلي، قائد الأركان بوزارة الدفاع الفرنسية، في وضع استراتيجية ترمي إلى تحقيق الانتصار العسكري بالجزائر. وفي خريف السنة ذاتها قام بدور كبير في تحضير العدوان الثلاثي على مصر وتنفيذه، وقابل من أجل ذلك القادة الصهاينة من أمثال بن غوريون وموشي دايان وشمعون بيريز في باريس وإسرائيل. في 1958، كان من المدبرين لانقلاب 13 ماي، لكن انكشف أمره وأُودع السجن قبل انتصار صالان وأصدقائه بالجزائر.

ذلك هو الرجل الذي اختاره ديغول لكي يقضي على جيش التحرير ويقدم له على طبق من فضة جزائر "آمنة" يتمكن بعد ذلك من صياغة "تطورها في الإطار الفرنسي". في منتصف أكتوبر 1958 عينه ديغول نائبا للجنرال صالان واعداً إياه بالخلافة في الوقت المناسب، فجاء وخصص وقته للتجوال عبر

مختلف المناطق العسكرية في الجزائر والاطلاع على مجريات الحرب فيها والأساليب المتبعة لإدارتها. وعندما عين قائدا أعلى للجيش الفرنسي بالجزائر بعد شهرين من ذلك، في 17 ديسمبر 1958، كان قد عاد إلى باريس حاملا نظرته الخاصة لأساليب الحرب في الجزائر ومخططا عرضه على ديغول وحصل على موافقته، ثم عاد إلى الجزائر وشرع فورا في تطبيقه.

2- استراتيجية شال : أسلوب حربي جديد[9]

بعد أن تسلم شال مهامه بثلاثة أيام، أصدر أولى تعليماته[10] إلى المسؤولين العسكريين في الجزائر قال فيها: إن الهدف من التعليمات والإجراءات التي سيأمر باتخاذها هو "إعادة كافة السكان إلى رقابتنا" وأن الوسائل التي سوف تستخدم لذلك هي "مواصلة العمل على انسداد الحدود وفعالية الحواجز" و"تدمير المنظمة السياسية–الإدارية للخصم ومطاردة عصابات *الأفلان*"[11] بوحدات خفيفة خاصة سميت *كوماندوسات المطاردة*[12]. وبالنسبة إلى المناطق التي تكون فيها هذه الوسائل غير كافية، لابد من استخدام "الاحتياطي العام" يعني "القوة الضاربة" التي قرر تكوينها من المظليين وقوات اللفيف الأجنبي،

9- من المراجع العديدة التي تناولت الاستراتيجية العسكرية للجنرال شال، يمكن الرجوع إلى :
G. Meynier, Histoire Intérieure du F.L.N.,op.cit., pp. 229-300.

10- يوجد نص التعليمة في :
Claude Paillat, op. cit., 501-502.

11- *نفس المكان*.

12- Commandos de chasse . شكلت هذه الوحدات المكونة كلها تقريبا من *الحركة* و *القومية* على طريقة كتائب جيش التحرير المقسمة إلى أفواج يضم كل منها حوالي 30 إلى 35 رجلا.

وكان يعول عليها كثيرا لتنفيذ مخططه الجهنمي. وقد احتلت قوات *الحرْكة* بمختلف أشكالها مكانة هامة في مخطط شال، إذ كتب عن هذا الموضوع في التعليمة نفسها : "إن استخدام الفرنسيين من أصل شمال إفريقي هو في المقام الأول ضرورة معنوية. فلن نتمكن من إخماد حرب التحرير الجزائرية بدون الجزائريين. وهو بعد ذلك من ضمانات الفاعلية لأن أفضل مطارد لـــ *الفلاقة* هو الفرنسي من أصل عربي، وهو في الأخير ضرورة للحد من تناقص قواتنا"[13].

عاب شال على من سبقه من القادة العسكريين أنهم كانوا يعملون في النهار فقط تاركين الليل لجيش التحرير، وأنهم قاموا بعمليات محدودة النطاق، استخدمت فيها قوات قليلة في نظره، تدوم العملية بضعة أيام ثم تنتهي بانتظار عمليات أخرى بعد مدة اعتبرها طويلة. وكل ذلك في إطار إجراءات بيروقراطية تتمسك بالحدود الإدارية للقطاعات العسكرية ولا تسمح بتجاوزها، وفوضى شاملة في طرق إدارة الحرب. عن هذه النقطة الأخيرة، قال لمحدثيه بعد مجيئه بمدة: إن الجزائر قبل توليه المنصب كانت مقسمة إلى 75 قطاعا، وكان ذلك عبارة عن 75 طريقة مختلفة لإدارة الحرب. نموذج من العمليات التي كانت سائدة ورفضها شال : يبدأ التخطيط لعملية قبل انطلاقها بأيام بناء على "معلومات سرية" لكن بمعرفة العديد من الكتاب الذين يضربون على الآلة الوثائق الخاصة بها في سبع نسخ أو أكثر. يرسم مسبقا نطاقها على الورق ويجب ألا يتجاوز الحدود الإدارية[14] للقطاع العسكري كما تنص عليه التنظيمات العسكرية، إلا إذا نص مخطط العملية على ذلك صراحة. تبدأ العملية

13- Claude Paillat, *op. cit.*, p. 502.

14 سمح هذا للجنود بالعمل على عدم البقاء في حدود القطاع العسكري عند شن العمليات التمشيطية.

ويتم القصف فالتمشيط، ثم ينتهي العمل وتعود القوات إلى مواقعها لتكرس وقتها في الأيام التالية للتربيع الساكن وحراسة السكان. في غالبية الأحوال، تكون نتيجة العملية لا شيء أو هزيلة، إذا واتاها الحظ بالاشتباك عن طريق الصدفة مع إحدى كتائب الجنود لأن هؤلاء يكونون قد سمعوا بالعملية قبل انطلاقها، فاتخذوا الاحتياطات المناسبة، بالاختباء أو الانسحاب إلى إقليم القطاع العسكري المجاور حيث يقومون باستعادة قواهم أو باستنزاف القوات الفرنسية لكن من خارج المنطقة المحاصرة. بعد انتهاء العملية، يخرجون من مخابئهم أو يعودون من المنطقة المجاورة إلى مواقعهم، ويعود الوضع إلى ما كان عليه.

في ما يتعلق بالقيمة الذاتية للمقاتلين، قال تقدير شال إن "المتمرد" في ميدان يعرفه جيدا فهو متفوق جدا من الناحية الفردية على المقاتل الفرنسي. لكنه خارج هذه الحدود يملك "القيمة نفسها التي تملكها العناصر الفرنسية"[15]. من هذا النقد والتقييم يمكن بسهولة أن نستخرج العناصر المكونة لاستراتيجية شال :

> يجب إخراج المتمردين من منطقتهم الطبيعية وملاحقتهم في منطقة واسعة قدر الإمكان ولمدة طويلة قدر الإمكان... لا يكفي القيام بتطويق منطقة وتمشيطها ثم مغادرتها. لابد من البقاء فيها، وفي منطقة واسعة جدا، لأن *الفلاقة*

15 كما ورد في :

Y. Courrière, *L'heure des colonels*, Fayard, Paris, 1970, p. 552.

يسيرون بسرعة في منطقة يعرفونها جيدا... إذا بقينا طويلا، وأخذنا الجبل، وأقمنا فيه ليل نهار، فإن المتمرد سيختفي. والحال أنه لابد أن يعيش، ولا يمكن العيش في مخبأ... إن العدو بحاجة إلى الاتصال بالسكان وإلا فإنهم سيتخلون عنه وعن المعركة التي يخوضها. فإذا كان خروجه في كل مرة يضعه في منطقة غير آمنة فإن حياته تصبح لا تطاق. وهذا ما يجب علينا أن ننجح فيه : جعل الحياة مستحيلة بالنسبة إليه[16].

العناصر الأساسية لاستراتيجية شال تتمثل، إذاً، في محاصرة مساحات شاسعة من مناطق تمركز جيش التحرير، والتوغل في أعماق الجبال الوعرة عن طريق قوات المشاة وشق المسالك لتقدم الشاحنات والدبابات حيثما أمكن ذلك، وإخلاء المناطق الجبلية من سكانها، ثم إقامة مراكز عسكرية والاستقرار فيها ليل نهار ولمدة طويلة، لا تقل عن شهرين في المتوسط. إذا وقع اصطدام عنيف مع كتيبة قوية، هناك الطائرات المروحية الرهيبة القادرة على إمداد الوحدات المشتبكة في ظرف عشر دقائق أو ربع ساعة[17] بفيلق من القوات المستريحة التي كانت تنتظر خصيصا لتلك المهمة. خلال هذه المدة الطويلة، لابد أن تكون الكتائب قد أرغمت على المواجهة وخسرت قسطا كبيرا من جنودها

16 -يوجد ملخص عن استراتيجية شال وفقرات من تعليماته الأولى في *نفس المرجع*، ص 499-500.

17- كتب العقيد كافي : "...فكانت الوحدات العسكرية تتناوب على العمليات، حيث تنسحب وحدة للراحة لتخلفها أخرى بأسلحة حديثة، وطائرات متنوعة منها Bananes volantes الأمريكية، والتي كان بإمكانها أن تقوم بعملية إنقاذ بفيلقين في ظرف خمس دقائق فقط. وطائرات أخرى من نوع T6، من فرنسا وألمانيا، وF.100 الخارقة للصوت". *مذكرات الرئيس كافي*، ص247.

بسبب التفاوت الكبير في القوات المستخدمة. بعد انتهاء العملية، تنسحب القوات الكبرى وتحل محلها *كوماندوسات مطاردة* أنشئت من أجل هذا أيضا، ووحدات *الحرْكة* و *الدفاع الذاتي* لتواصل حراسة المنطقة وترصد الجنود والمناضلين الباقين، وملاحقتهم لكيلا يتمكن جيش التحرير من إعادة تنظيم نفسه وتجديد ما دمر من تنظيمه العسكري والسياسي.

فعلا، فلقد كان هذا الأسلوب خطيرا جدا بالنسبة إلى جيش التحرير : احتلال الميدان والبقاء فيه لمدة طويلة، حرمانه من التحرك في منطقته حتى في الليل، انعدام الجدوى من التنقل إلى منطقة أخرى، لأن الرقعة المحاصرة واسعة جدا، وإرغامه في النهاية على المواجهة في ظل ميزان قوى متفاوت للغاية، ثم مواصلة الدوريات و"الخرجات" المباغتة بواسطة مروحيات تقوم بإنزال قوات في أي مكان وأي وقت، ذلك ما لم يكن جيش التحرير متعودا عليه من قبل.

في الواقع، عندما ننظر إلى هذه الاستراتيجية نلاحظ أنها لا تحتاج إلى ذكاء خارق لوضعها. عناصرها بسيطة وفاعليتها بديهية. لكن نجاحها يتوقف كليا على شرط أساسي جدا لولاه لما حقق النجاح الذي كان لها. هي بحاجة في العملية الواحدة إلى قوات ضخمة جدا. وتقديرنا أن أخطر ما تفتقت عنه قريحة شال الاحترابية يكمن في معالجة هذه المسألة. من قبل، كان القسم الأساسي من الجيش الفرنسي في الجزائر يتكون من "قوات القطاع" المكلفة بالعمل في قطاع عسكري معين، والقسم الآخر يضم وحدات النخبة التي تشكل الاحتياطي القتالي العام المنتشر عبر مختلف أرجاء البلاد. قام شال بجمع كل قوات الاحتياطي العام وضاعف أعدادها باقتطاعات جديدة من قوات القطاع،

فأخرج الوحدات العملياتية في كل منها وضخم الاحتياطي العام الذي سيقحم بأكمله في كل واحدة من العمليات التي برمجها في مخططه. ذلك أن احتلال سدس[18] كامل من تراب الجزائر الشاسع وتمشيط غاباته شجرة بشجرة ووديانه حجرة بحجرة، ثم وجود *كوماندوسات* ووحدات *حركة* في حالة استنفار دائم، كل هذا يحتاج إلى قوات ضخمة. لذلك طلب من ديغول كما رأينا ألا ينقص من القوات الموجودة بالجزائر عند توليه قيادة الجيش الفرنسي فيها وأن يسمح له بزيادة قوات *الحركة*.

3- تطبيق المخطط

في الفترة الممتدة من نوفمبر 1954 إلى فيفريي 1959، سار حجم العمليات العسكرية الفرنسية نحو الزيادة، سواء من حيث تعداد القوات والأسلحة المستخدمة في العملية الواحدة أو الرقعة الجغرافية التي كانت تغطيها. ونجم عن المعارك التي رافقتها عدد كبير من الضحايا، مقاتلين ومناضلين ومدنيين. فبالإضافة إلى الجنود والمناضلين الذين سقطوا فيها، هناك عدد كبير من "المشبوهين"، أي الرعاة والفلاحين والمدنيين بوجه عام، قتلوا وهم فارون أمام تقدم القوات الفرنسية أو أخرجوا من منازلهم وأعدموا على مرأى ومسمع من أبويهم وزوجاتهم وأولادهم، أمام المنازل أو في الشعاب المجاورة، ولاسيما إذا

18- لأن شال كان يعتزم تنفيذ عملية في كل ولاية.

كانت قوات الاحتلال قد اشتبكت مع الجنود وقتل بعض رجالها[19]. وقد بين لنا استعراض أمثلة كثيرة عن هذه العمليات وفي مختلف السنوات أن القوات المجندة للعملية الواحدة كانت بضعة آلاف من الرجال، في المتوسط 5000 رجل، وقلما تبلغ 000 10 رجل[20]، وهو الرقم الذي سجل كأقصى حد في الأمثلة المذكورة. في ما يخص مخطط شال، الأمر مختلف تماما. كانت القوات أكثر، والأسلحة أيضا، ومنطقة العملية الواحدة واسعة بدرجة لا تحتمل أي مقارنة مع السابق.

برمج شال في مخططه خمس عمليات كبرى، واحدة لكل ولاية، من الخامسة إلى الأولى بالترتيب التنازلي، متوقعا لكل واحدة منها شهرين بالتقريب. وقرر أن يكون التنفيذ من الأسهل إلى الأصعب، في رأيه. وهو تقييم صحيح إلى حد ما نظرا للتفاوت المعروف بين الولايات، من حيث القوات المتوفرة لها وكثافة الغابات ووعورة التضاريس...الخ. تقييم صحيح في نظرنا بالنسبة إلى الولاية الخامسة التي كانت الأسهل في رأي شال وفي الواقع أيضا، ولكنه غير صحيح بالنسبة إلى الولاية الأولى[21]، إذا صح أنه اعتبرها الأصعب.

19- في الواقع، كان عدد القتلى من المدنين في مثل هذه الحالات متناسبا بوجه عام مع شدة الاشتباكات وخسائر الجانب الفرنسي، طبقا لمبدأ المسؤولية الجماعية، وأضعاف من القتلى المدنيين الجزائريين مقابل القتلى في صفوف الفرنسيين. أنظر أمثلة عن ذلك في :

G. Meynier, Histoire intérieure du F.L.N., pp. 284-286.

20- أثناء استعراضنا لمختلف العمليات سجلنا هذا الرقم كأقصى حد في عملية شنها الجنرال فور، Faure، ابتداء من 16 أكتوبر 1958 تحت اسم *برومير* Brumaire، شملت غابات الأكفادو والغرغور ووادي الصومام، وكان الهدف المعلن من تنفيذها القضاء على العقيد عميروش، قائد الولاية الثالثة وقتها.

21- ابتداء من 1956، لم تعد ولاية الأوراس هي الأقوى كما كانت في بداية الثورة.

أما الولايات الثلاث الأخرى (الرابعة والثالثة والثانية)، فلا نرى فرقا بينها بمفهوم السهولة والصعوبة الذي وظفه شال لوضع الجدول الزمني لهجماته الشرسة من أجل القتل والتدمير والترحيل[22] والقصف والتعذيب. مهما يكن من أمر، فهو قد قرر أن يبدأ بالولاية الخامسة في الغرب ويختم مخططه المشؤوم بالولاية الأولى. سارت الأمور كما خطط لها تقريبا من فيفريي إلى سبتمبر ــ أكتوبر 1959 مع تأخر في المواعيد المرتقبة. في نوفمبر 1959، كان قد وصل إلى الشمال القسنطيني لكن تجربة الفترة السابقة أرغمته على تعديل برنامجه من أجل تطبيقه في الولاية الثانية. أما الولاية الأولى، والأخيرة في رزنامته، فلم يصل إليها لأن رياحا سياسية جديدة كانت قد عصفت به[23] فمنعته من شن العملية المبرمجة لها، ثم نفذها في أكتوبر 1960 رديفه وخليفته الجنرال كريبان الذي تبنى الخطة نفسها، معمداً إياها باسم جديد طبعا.

22- أثناء مخطط شال بلغت عمليات الترحيل وحشر السكان في مراكز التجميع أوسع نطاقها. كان الهدف من ذلك عزل جيش التحرير بإخلاء المناطق الريفية المحاذية للجبال والموجودة أحيانا داخل الغابات نفسها، من ناحية، ومن ناحية أخرى تجميع السكان في مخيمات كانت عموما قريبة من المراكز العسكرية، ليكونوا بعد ذلك تحت الحراسة خاضعين باستمرار "لدروس" فرق الحرب النفسية التابعة لمصالح المكتب الثاني.

23- منذ أسبوع الحواجز في جانفي 1960 وموقف شال المتواطئ مع المتمردين لم يعد القائد الأعلى، في نظر ديغول، الرجل المناسب في الجزائر. أطلعه ديغول بمناسبة زيارته إلى الجزائر في "جولة المطابخ الثانية" أنه سينقل من الجزائر، فطلب منه أن يمنحه "مهلة لإتمام مخططه" لكن ديغول تمسك بموقفه وعين مجلس الوزراء الفرنسي المنعقد بتاريخ 30 مارس 1960 الجنرال كريبان قائدا أعلى جديدا للجيش الفرنسي بالجزائر خلفا لموريس شال الذي عاد إلى المتربول لتولي منصبه الجديد كقائد أوروبا الوسطى للحلف الأطلسي.

نفذ القائد العام خمس عمليات كبرى[24] شملت على التوالي الولايتين الخامسة والرابعة، ثم المناطق الحدودية بين الولايتين الثالثة والسادسة، وبعد ذلك الولاية الثالثة بكاملها والولاية الثانية. كانت كل واحدة من هذه العمليات تشبه حربا مصغرة بالنظر إلى القوات المشاركة فيها (من 000 30 إلى 000 40 رجل) والمعدات والأسلحة المسخرة لها. كانت الأولى منها، في الولاية الخامسة، الأشد خطرا على جيش التحرير، لأنها استفادت من عنصر المفاجأة بصورة كاملة، خاصة في الأيام الأولى من انطلاقها. في الواقع، حتى ذلك الحين، لم يكن جيش التحرير متعودا على هذا النوع من العمليات : حصار مستمر وقوات كالجراد تتقدم في الأرض وتنزل من "السماء" بين الحين والآخر، وأخرى متمركزة بصورة دائمة في مواقعه الحساسة سابقا. بالنسبة إلى الحصيلة، لا نملك أرقاما يمكن الاطمئنان إليها عن كل واحدة من عمليات شال، ولكن الثابت الذي لم ينكر حتى من قبل جيش التحرير أنها كانت معتبرة. بالنسبة إلى الأولى[25] مثلا، تحدثت بعض المصادر الفرنسية عن "القضاء على 50% من

24- هذه العمليات هي :

– عملية *كورون* Couronne، في الولاية الخامسة (فيفريي ــ مارس 1959).

– عملية *كوروا* Courroie، في الولاية الرابعة (أفريل ــ جوان 1959).

– عملية *إيتانسيل* Etincelle، في جنوب الولاية الثالثة (1-15 جويلية 1959).

– عملية *جوميل* Jumelles، بالولاية الثالثة (22 جويلية ــ نوفمبر 1959).

– عملية *بيير بريسيوز* Pierres précieuses، في الولاية الثانية، ابتداء من نوفمبر 1959 وإلى غاية جوان 1960.

25- حسب G. Meynier (*المرجع المذكور*، ص300)، على إثر عملية كوروا "دمر العديد من الكتائب. الكتيبتان 562 و563 ــ يعني الكتيبتين الثانية والثالثة للناحية السادسة في الولاية الخامسة ــ

المتمردين واسترجاع نصف الأسلحة التي يفترض المكتب الثاني[26] أنها كانت عند الجنود"[27].

بعد مرور أيام المفاجأة الأولى، أدركت قوات جيش التحرير طبيعة الاستراتيجية الجديدة فحاولت التكيف معها من أجل الحفاظ على قواتها والتقليل من حجم خسائرها بتفادي الاصطدام مع القوات الفرنسية قدر الإمكان، والخروج إذا أمكن ذلك من مناطق الحصار إلى الولايات المجاورة[28]، وتفكيك الكتائب والفرق إلى مجموعات صغيرة يصعب العثور عليها.

انتقل شال بعملياته الكاسحة من الولاية الخامسة إلى الرابعة[29]، ثم جاء دور القلعة القبائلية، فخصص لها أضخم عملياته وأشهرها، وهي عملية *جوميل* التي نتخذها نموذجا عما وصل إليه التصعيد العسكري الفرنسي، ونتوقف عندها قليلا. أعد شال لهذه العملية عدة خاصة، من التخطيط والإمكانيات. قبل

تقلصت قواتهما، إحداهما إلى فرقة صغيرة، والأخرى إلى أسوأ من ذلك، إذ انخفضت إلى فوج واحد، وتناقصت أسلحتهما بمعدل الثلثين".

26- كان *المكتب الثاني* متخصصا في الاستخبارات وجمع المعلومات عن تحركات جيش التحرير وتعداد قواته وأسلحته. وسيلته الأساسية للحصول على ذلك كانت بالطبع "الاستجواب العضلي" والتعذيب.

27 - Y. Courrière, L'heure des colonels, p. 553.

28 -عن هذا كتبت المجاهد في العدد 59 بتاريخ 5 فيفري 1960 : "أثناء عملية كورون تمكنت كتائب المنطقتين الرابعة والسابعة للولاية الخامسة، وكذلك كوماندوس عبد المومن للمنطقة، وكوماندوس المنطقة السابعة، من الانتقال بعناصرها التنظيمية الرئيسية إلى الولاية الرابعة ؛ في الجملة، كان العدد أكثر من 400 رجل".

29- لمزيد من المعلومات عن عملية كوروا والوضع العسكري الذي خلفته في الولاية الرابعة، يراجع G. Meynier، المرجع المذكور، ص300؛ علما بأن الأرقام التي أوردها الكاتب بهذا الخصوص مستمدة في غالبيتها من وثائق الـ S.H.A.T. (القسم التاريخي للقوات البرية) في فانسين، أي أنها إحصائيات السلطات العسكرية الفرنسية.

الإقدام عليها، قام بعملية للمناورة والتمهيد هي عملية *الشرارة* Etincelle التي غطت مناطق الحضنة في جنوب الولاية الثالثة. كان الهدف مزدوجا : للمناورة بتلهية القائد محند او الحاج الذي ربما سيتهاون لاعتقاده بأن شال لن يواجهه قبل المدة المعتادة لكل عملية، يعني شهرين، وبالتالي سيتمكن من أن يأخذه علي حين غفلة منه قبل هذا الموعد، لأن هذه العملية دامت من 1 إلى 15 جويلية فقط. وهو من ناحية أخرى سيمهد للعملية القبائلية بقطع طرق العبور ونقاط الاتصال بينها وبين الولايات الأولى والسادسة[30] والرابعة.

يوم 22 جويلية 1959، إذاً، انطلقت عملية "التوأمتين"[31] بقوات لم يسبق لها مثيل في عمليات الجيش الفرنسي بالجزائر. هناك قوات المظليين العاملة في الجزائر بأكملها (اللواء العاشر واللواء الخامس والعشرون) وفيالق اللفيف الأجنبي، في المجموع 000 25 رجل من وحدات النخبة التي كونت *الاحتياطي العام*، انضم إليها حوالي 000 15 رجل من قوات القطاع زائد وحدات *الحركة* و *مجموعات الدفاع الذاتي*. قوات عملية *الشرارة* انتقلت إلى القبائل بتمامها، دبابات مدينة الجزائر تحركت نحو القبائل، مئات الشاحنات العسكرية انطلقت من قسنطينة محملة بالجند والعتاد. الطيران في الجو، عمليات إنزال بحرية في "رأس سيغلي" بين بجاية و *بور غيدون* Port Guydon. قوات ربما لم تبلغ الرقم

30 – لم يخصص شال في برنامجه عملية للولاية السادسة لأنها كانت في رأيه تثير مشاكل خاصة وتحتاج إلى تخطيط خاص ووسائل أكبر، مؤجلا النظر والحسم في أمرها إلى وقت لاحق.

31– المقصود بها هو العملية المخصصة للشقيقتين، القبائل الكبرى والقبائل الصغرى، وقد فضلنا اعتماد التسمية الأصلية بالفرنسية بدلا من ترجمتها الشائعة والخاطئة في تقديرنا، بكلمة المنظار.

الذي أوردته صحيفة *المجاهد* التي تحدثت عن 000 70 رجل لكنها بشهادة الفرنسيين أنفسهم لم تقل عن 000 50 رجل. تعبيرا عن الأهمية الخاصة التي أولاها شال لهذه العملية قرر أن يقودها بنفسه[32]. لذلك، ومنذ البداية، أنزلت وحدات اللواء العاشر للمظليين في قمة جبل شلاطة وقامت بتمشيط المنطقة غير الغابية على مشارف غابة الأكفادو الكثيفة والوعرة، حيث يوجد مركز قيادة الولاية الثالثة منذ انطلاق الثورة. وفي قمة جبل شلاطة أقام الجنرال شال مركز قيادته الذي سماه بالمناسبة *أرتوا*، Artois، وشرع في إدارة العمليات بمساعدة أشهر الضباط الفرنسيين بالجزائر : غراسيو Gracieux، كازانوف Cazanove، جيلز Gills، دولاك Dulac، ماسو Massu، أوليي Olié، وفور Faure، وغيرهم، كلهم كانوا بجنبه. وهناك زاره الجنرال ديغول يوم 30 أوت 1959 معبرا بذلك عن اهتمامه بمحاولة القضاء التام على جيش التحرير، وكذلك من أجل تحضير القيادة العسكرية لتقبل المبادرة السياسية الهامة التي سيتخذها بعد عودته إلى باريس، وهي إعـــلان مبدأ تقرير المصير في خطاب 16 سبتمبر التالي.

نفير عند المشاة والدبابات، وزئير الطائرات، ودخان المنازل المحروقة، وعويل النساء والأطفال وفرقعة الرصاص ودوي القنابل : ذلك هو الجو الذي ساد طيلة أكثر من شهرين في هذه المنطقة الشاسعة الممتدة من تيزي وزو غربا إلى حدود الولاية الثانية في جبال بابور وسرج الغول شرقا والهضاب العليا

32 –وهناك سبب آخر لإشراف شال بنفسه على هذه العملية، وهو التنافس ونزاعات الاختصاص والقيادة التي ظهرت بين جنرالات هيئة أركان جيش الجزائر وهيئة أركان جيش قسنطينة. شنت العملية بمشاركة كلا الجيشين، ورفض ضباط كل منهما أن يعملوا تحت أوامر ضباط الجيش الآخر، فقام شال بإدارتها تفاديا للشجار بين ضباطه وليبين أيضا أنه القائد دون غيره.

جنوبا على امتداد الشريط الرابط بين البويرة والبرج وسطيف والعلمة. كانت الخسائر معتبرة[33] في صفوف جيش التحرير، إلا أن تجربة الولايتين الخامسة والرابعة كانت مفيدة فحالت دون تحقيق الهدف الذي رمى إليه شال. كتائب جيش التحرير كانت قد تجزأت إلى مجموعات صغيرة من 15 أو 10 جنود أو أقل، واتخذت احتياطات أكبر للمواجهة، فكانت للفرنسيين خسائر غير متوقعة، وتقلص حجم الخسائر عند الجنود باعتراف شال نفسه الذي لاحظ أن "المتمردين تفرقوا، والنتائج الأولية مخيبة"[34].

عملية **جوميل** التي انطلقت كما ذكرنا يوم 22 جويلية 1959 كان من المفروض أن تنتهي حسب شال "قبل بداية موسم الأمطار" أي في أواخر سبتمبر، لكنها تواصلت[35] بصورة كاملة إلى غاية نوفمبر، ثم نقل القسم الأكبر من قواتها إلى الشمال القسنطيني، بينما بقي لواء كامل من المظليين بالقبائل لمواصلة العمـــلية التي لم تنته رسميا إلا في ربيع 1960، تحديدا يوم 3 أفريل 1960. فأين نحن، إذاً، من موعد جويلية الذي حدده مشال دوبري لإعلان الانتصار النهائي ؟ نحن الآن في أكتوبر ــ نوفمبر، وشال لم ينته بعد من الولاية الثالثة، وفي انتظاره الشمـــال القسنطيني والأوراس بأكملهما، والولاية السادسة في الأطلس الصحراوي الذي لم توضع له أصلا خطـــة نهائية بسبب اتساع

33 تحدثت بعض المصادر الفرنسية عن تدمير 40 % من الإمكانيات البشرية والتنظيمية لجيش التحرير في هذه العملية.

34- M. CHALLE, *Notre révolte*, Presses de la Cité, Paris, 1968, p. 40.

35- أنظر في هذا الصدد : G. Meynier، *المرجع المذكور*، ص 302.

رقعته والمشاكل الخاصة التي يثيرها والوسائل الأكبر التي يحتاج إليها لتمشيطه والإقامة فيه طيلة شهرين أو أكثر.

آخر عملية نفذها شال كانت عملية *الأحجار الكريمة* Pierres précieuses في الولاية الثانية ابتداء من نوفمبر 1959. أثناء عملية *جوميل* عاين شال المشاكل الناجمة عن شن عمليات من هذا الحجم، وتوقع أن تكون الصعوبات أكبر في الشمال القسنطيني قائلا عنها : "إن القضية الآن أكثر صعوبة. ذلك أن كل هذه الجبال هي مجال المتمردين، ومراكز القطاع توجد في وضع المحاصَر بدل المحاصِر"[36]. كان القائد العام يعلم أن الولاية الثانية عبارة عن قلاع من غابات البلوط والفلين الكثيفة، والجبال الوعرة بدون مسالك. لذلك قرر تفكيك العملية الكبرى، عملية *بيير بريسيوز* المخصصة لضرب الولاية الثانية إلى ثلاث عمليات فرعية كل واحدة منها "تعالج" جزءا من تراب الولاية. وانطلقت هذه العمليات في نوفمبر ــ ديسمبر 1959 بمشاركة قوات بلغت من 000 35 إلى 000 50 رجل، تحت القيادة العليا للجنرال جانو Janot، الذي حذا حذو رئيسه شال، وأبى إلا أن يكون له هو الآخر مركز قيادة يتميز باسم خاص، فأنشأ واحدا سماه *لانغودوك* Languedoc. لم تتلفظ القيادات العسكرية الفرنسية، هذه المرة كما في سابقاتها، ببنت شفة عن خسائرها، مكتفية بنشر أرقام عن خسائر جيش التحرير تتراوح بين 40 و50% من العدد الإجمالي للمقاتلين والأسلحة، مـــــركزة على "إنجاز" إضافي حققته هذه العمليات وهو تجميع 000 80 نسمة كانوا من قبل خارج سيطرتها، منتشرين عبر الجبال والمناطق المحرمة.

36- *نفس المرجع*، ص 41.

يستفاد من التقارير والمعلومات المتعلقة بعملية *بيربريسيوز* أن مخطط شال لقي في الشمال القسنطيني مقاومة أشد مما لقيه في الولايات الأخرى. ولعل أهم سبب في ذلك، من جملة أمور أخرى، أن عنصر المفاجأة كان ضعيفا للغاية في الولاية الثانية التي كانت تنتظر دورها في مخطط شال منذ شهور، وكانت قد أمرت كتائبها بالتفكك منذ أفريل 1959. على أية حال، كانت النتائج، رغم خطورتها بالنسبة إلى الولاية الثانية، مخيبة لآمال شال ونوابه الذين اعتبروها هزيلة مقارنة بالإمكانيات المسخرة. القيادة الفرنسية أرجعت ضعف النتائج المحققة، لا إلى المقاومة، بل إلى عوامل جغرافية ومناخية : "لم تحقق عملية *إميرود*[37] Emeraude نتائج في مستوى الإمكانيات المستخدمة بسبب التشتت الرائع لوحدات *الفلاقة*، والتضاريس، والغطاء النباتي، وانعدام المسالك، وبنوع خاص سوء الأحوال الجوية. فالجند المبللون بالأمطار، في أرض مغمورة بالمياه، كانوا يسيرون على الفلاقة من دون أن يروهم"[38].

4- الآثار العسكرية

ألحق مخطط شال أضرارا كبيرة بالولايات التي عانت أصعب مراحل نضالها في الفترة الواقعة بين جانفي 1959 وصيف 1960. بالرغم من أن الأرقام التي سجلها بعض الكتاب الفرنسيين عما بقي في هذه الفترة من الجنود مصغرة

37- إحدى العمليات الفرعية لعملية *بيربريسيوز*.

38- من تقرير عن عملية *إميرود* لسنة 1960، كما رواه G. Meynier، في *المرجع المذكور*، ص 302.

بشكل مبالغ فيه، فالثابت أن جيش التحرير في الداخل فقد نسبة معتبرة من جنوده ومناضليه، وتدهورت إلى حد بعيد ظروف العيش والنضال بالنسبة إلى الباقين. هذا الأمر لا يحتاج إلى تدليل لأن سكان الأرياف والجبال يعرفونه جيدا، والمناضلون والقادة الذين تمكنوا من تسجيل شهاداتهم يؤكدونه صراحة. في نهاية 1959، كان قد انتهى الزمن الذي شهد الجنود وهم يتجولون بأعداد كبيرة في وضح النهار[39] بأسلحتهم ولباسهم العسكري، لم يبق من الفرق والكتائب إلا مجموعات صغيرة. مناضلون بدون أسلحة، بل وجنود نظاميون بأسلحة دون ذخيرة وحتى بدون أسلحة في بعض الأحيان. وسائل العيش تناقصت نتيجة الحصار الدائم واختفاء مصادر التموين وانقطاع طرقه. الاتصالات انقطعت بين مختلف الأقسام والنواحي في الولاية الواحدة، وبين بعض الولايات في ما بينها.

محمد تقية، وقد كان عندئذ ضابطا بالولاية الرابعة ومسؤولا عن الإعلام لدى الرائد سي محمد، قال إن "الوحدات التي تعرضت لأقل عدد من الضحايا هي الوحدات التي ذهبت إلى الولايات المجاورة أو بكل بساطة إلى حيث لم يكن من المنتظر أن توجد، أي في السهول"[40] مثل وادي الشلف وسهل متيجة. وتحدث حسين زهوان عن عملية *جوميل* التي عرفها جيدا في الولاية الثالثة بهذه العبارات : "سيكون من غير المعقول ألا نعترف بأن عملية *جوميل* ألحقت بنا خسائر كبيرة، إن لم تكن معتبرة. ففيها فُقد جزء كبير من خيرة الإطارات

39- من مظاهر قوة جيش التحرير في ذلك الوقت أن الجنود كانوا يلعبون كرة القدم باطمئنان ويتبارون في دقة التسديد نحو أحجار ثابتة أو طيور حائمة.

40- M. Teguia, *L'ALN vue à travers la wilaya 4*. Mémoire de Maîtrise, Université de Vincennes, p. 66.

وأحسن المعدات. لم تعد الأسلحة الجماعية موجودة إلا في المخابئ والأسلحة الفردية صارت تعوزها الذخيرة"[41]. وعن هذه العملية دائما أدلى الملازم سعادة لإيف كورييز بالشهادة التالية :

> لم يعد في مقدورنا أن نتحرك و لم نعد نأكل. كنت ضعيفا إلى حد أنني لم أستطع أن أحمل رشاشي... إنشاء المراكز العسكرية... جعل حياتنا لا تطاق...كان لابد من التحكم في السكان من جديد... قتلنا بعض الخونة وهاجمنا حرْكة *الدفاع الذاتي*... بعد بضعة أمثلة من هذا النوع أصبح كثير من أفراد *الدفاع الذاتي* يقومون بحمايتنا. وهناك مناطق كانت تعتبر 'آمنة' تحولت إلينا من جديد. تمكنا من البقاء بقتل أعداد كبيرة من الخونة، لكننا لم نتمكن أبدا من استعادة المبادرة[42].

وتحدث قائد الولاية الثانية، علي كافي، من جهته عن عمليات *بيير بريسيوز* التي سماها *جوميل الثانية* في ولايته بالطريقة نفسها تقريبا :

> منذ انطلاق عمليات شال أصبحت الولاية الثانية جبهة حقيقية للحرب، ورغم تعليمات تحاشي الاصطدام... فإن عدة اشتباكات وقعت تسببت (هكذا) في خسائر هامة في صفوف احتياطي جيش التحرير الوطني الذين لا يتوفرون

41 -كما ذكره حربي في : *Le FLN, mirage et réalité*، ص 233.

42- كما ذكره إيف كورييز في : *L'heure des colonels*، ص 610.

على أية وسيلة للقتال... وهكذا أصبحنا نشاهد ضعفا محسوسا في الوحدات النظامية وتزايدا يوميا للاحتياطيين الذين لا يتوفرون على التجربة ولا السلاح... لدرجة أننا أصبحنا، وقد يبدو ذلك غريبا، نستعمل جنودا من دون سلاح[43].

وعن مخطط شال بصفة عامة كتب الكافي في موضع آخر :

فقد أسند الجنرال ديغول المهمة الصعبة للجنرال شال الذي جاء بقوات ضخمة وقام بعمليات تمشيط واسعة ودقيقة وخانقة، وغير أسلوب وحداته العسكرية في إحكام السيطرة على بعض المناطق، فكانت الوحدات العسكرية تتناوب على العمليات حيث تنسحب وحدة للراحة لتخلفها أخرى بأسلحة حديثة... وأستطيع أن أؤكد ما عشته ورأيته بأننا لم نعرف مرحلة أخطر على الثورة من مرحلة الجنرال ديغول[44].

لكن المسؤول عن المصاعب التي شهدها جيش التحرير وانحسار دور الولايات ابتـــداء من فتـــرة 1959ـــ1960 ليس عمليات شال وحدها، بل هناك عوامل أخرى تضافرت في وقت واحد وأحدثت الضعف المذكور، بعضها يعود إلى جوانب أخرى من مخطط شال ذاته، والبعض الآخر مصدره الأوضاع والمشاكل التي عرفتها *الجبهة* وجيش التحرير في الداخل، وفي الخارج على وجه

43 *مذكرات الرئيس علي كافي*، ص 208.

44 *نفس المرجع*، ص 246-247.

الخصوص. ومن ثم فإن المسؤول عن انحسار دور الولايات ليس عمليات شال وحدها وإنما مجموع هذه العوامل والأوضاع. الحديث عن تلك الأوضاع يخرجنا عن الموضوع، فلنبق إذا مع مخطط شال.

5. الآثار السياسية

– سقوط وهم الحل العسكري

سبب مخطط شال للولايات تراجعا خطيرا في قدراتها بلغ حسب المصادر الفرنسية من 40 إلى 60% من إمكاناتها العامة (عدد الجنود والأسلحة والعتاد، البنية التحتية التنظيمية والسياسية). وإذا كانت نسبة 60% تبدو غير صحيحة استنادا إلى مختلف المؤشرات المتوفرة، فإن معدل 50% لا يكاد يجادل فيه أحد. ومع ذلك لم يكن هذا التراجع الخطير قاتلا ولا نهائيا، بمعنى أنه لم يسمح للجيش الفرنسي أن يعلن النصر العسكري النهائي، إذ ينبغي ألا ننسى أن الهدف المنشود وقتئذ، من جانب ديغول وشال وآخرين، كان تدمير جيش التحرير إلى درجة ترغم البقية الباقية من أفراده على الاقتناع بانعدام الجدوى من مواصلة الكفاح ومن ثم الاستسلام، ومن هنا فكرة "سلم الشجعان" لتسهيل عملية وضع الأسلحة، بضرب معنويات الجنود الباقين الذين سيقدمون على الخطوة بشيء من "راحة الضمير" لأنهم "سيلقون معاملة الأبطال". لم يتحقق ذلك و لم يكن إضعاف جيش التحرير قاتلا لأنه لم يقض على 80 أو 90% من قدراته ولأنه كان مؤقتا، فسرعان ما توقف اتجاه التناقص في أواخر 1960 ثم أخذ في التصاعد طيلة سنة 1961 ولكن دون أي يبلغ مجددا ما كان قد وصل إليه في 1957 ــ 1958. وكما كان للتراجع عوامله، كان لهذا الانتعاش النسبي

الجديد أسبابه أيضا. وكما في الحالة الأولى، تُرد تلك الأسباب إلى تطورات ساحة النضال الجزائري من جهة، وإلى مستجدات السياسة الديغولية والتناقضات التي أفرزتها من جهة ثانية.

في أواخر 1960، تنامى النضال الجماهيري في المدن، إذ ارتفعت فيها بشكل ملحوظ حدة المواجهات بين المسلمين والأوروبيين، ودفع ذلك السلطات الفرنسية إلى تحويل جزء من قواتها المرابطة في الجبال والأرياف إلى المراكز المدينية. في الوقت نفسه، كان غلق الحدود وتحسين مستوى التنظيم والتأطير وتراكم الأسلحة من الأمور التي أدت إلى تدعيم جيش الخارج الذي أصبح مصدر تهديد دائم للقوات الفرنسية لأنه أخذ في استنزافها من خلف الحدود ومهاجمة الحواجز المكهربة. نجم عن هذا بدوره نقل جزء من القوات الفرنسية في الأرياف إلى الحدود لحراسة الحواجز والرد على هجمات فيالق جيش التحرير المنطلقة من الأراضي التونسية والمغربية. من جراء هذا الانتشار الجديد للجيش الفرنسي باتجاه المدن والحدود، خف الضغط على الولايات، فتمكنت من استعادة أنفاسها وأخذت تعيد تنظيم نفسها في الأنحاء التي كانت قد أضعفت فيها وظهرت من جديد ثم تغلغلت في المناطق التي كانت قد اختفت منها.

نجد الأدلة على أن جيش التحرير لم يهزم رغم إضعافه وأنه استعاد قدرا هاما من قواته وحيويته ابتداء من ديسمبر 1960 في العمليات العسكرية الفرنسية التي تواصلت سنة 1960، شاهدة بذلك على أن الموقف العسكري لم يحسم نهائيا، وفي الأرقام التقريبية المتوفرة عن قواته بين 1961 و 1962، وفي

شهادات عديدة تؤكد حقيقة هذا الانبعاث، إن جاز القول، صادرة عن الأوساط الفرنسية ذاتها.

خلال سنة 1960 والنصف الأول من 1961، تواصلت العمليات الفرنسية في مختلف الولايات دون أن تبلغ أبدا حجم نظيراتها في 1959. فشهد شهر مارس 1960 عودة إلى الولاية الرابعة في عملية *ماتراك* Matraque، بجبال الونشريس في زمن شال. في ما بين 24 و 30 ماي من السنة ذاتها، عملية *ماراتون* Marathon، على الحدود التونسية الجزائرية. وتلقت جبال الداعية بالولاية الخامسة عملية *تونتاكول* Tentacule، في ما بين 15 أفريل و 15 ماي، ثم الولاية الرابعة من جديد في عملية *سيغال* Cigale، خلال شهر جويلية 1960. في هذه الأثناء كان الأطلس الصحراوي قد تلقى في موسم الصيف عمليتين باسم *بروميتي* Prométhée، الأولى والثانية.

وتتجلى كذلك استمرارية جيش التحرير بالداخل كعنصر أساسي في معادلة القضية الجزائرية ككل بعد مخطط شال في القوات التي بقيت له وفي تطورها اللاحق وفي الحيوية التي ميزت نشاطه سنة 1961. كانت السلطات الفرنسية تتغنى بالانتصار العسكري؛ لأنها بذلت جهودا ضخمة بدرجة لا تسمح لها أن تعلن خلاف ذلك. لكن الأرقام والشهادات التي نجدها في بعض الدراسات الفرنسية تكذب إحصائيات التقارير الرسمية. قلنا في ما سبق إنه من المتفق عليه أن الولايات فقدت حوالي 50% من قواتها في 1959-1960، يعني أنه بقي لها نصف القوات المعترف بها للـــداخل في 1958 أي من 000 30 إلى 000 40 رجل، بمتوسط 5 إلى 6 آلاف لكل ولاية، مع مراعاة التفاوت بين

مختلف الولايات طبعا. كان النصف من هذا العدد يحمل سلاحا حربيا. فيليب تريبيي Philippe Tripier الذي لم يكن أبدا من أنصار جيش التحرير، سجل لجيش الحدود 500 21 إلى 000 22 في جويلية 1960 و 000 16 في نهاية 1961[45]. أرقام هذا الكاتب قريبة من الحقيقة بالنسبة إلى جيش الحدود الذي سجل بالفعل تزايدا كبيرا في قواته ابتداء من 1960، بالمقارنة مع رقم 000 12 جندي الذي ورد في مذكرة قيادة الأركان[46] إلى الحكومة المؤقتة عن شهر فيفريي 1960، لكنه بعيد تماما عن الواقع في ما يخص جيش الداخل لأنه يظهر تناقصا مستمرا بين صيف 1960 ونهاية 1961، وهو تجاهل للتزايد الثابت الذي حصل ابتداء من ربيع 1961 باعتراف تقارير وتصريحات فرنسية أخرى.

حسب جريدة *المجاهد*، في نهاية 1961 "كانت الخارطة العملياتية للجزائر مطابقة لما كانت عليه في شتاء 1959. كان لجيش التحرير نشاط متواصل من حرب العصابات في جميع أنحاء البلاد، بما فيها المناطق التي كان مخطط شال قد ''كنسها'' مرتين أو ثلاثا"[47]. هذا التقييم مخالف للواقع بطبيعة الحال لأنه يفترض أن الآثار العسكرية لمخطط شال في 1959 أزيلت تماما في السنة التالية، فصارت الأمور في نهايتها كما كانت في مطلع السنـــة التي سبقتها، وهذا لم يحدث. في نهاية 1960، توقف الاتجاه نحو التناقص وبدأ التحسن في ربيع 1961 ثم تواصل بعد ذلك، لكن من دون أن تتمكن الولايات أبدا من تعويض كل خسائرها والعودة إلى الوضعية التي كانت عليها في أواخر 1958. يبقى أن

45- P. Tripier, pp. 526-528-

46- المقصود هو المذكرة التي أرسلتها قيادة الأركان العامة في 22 جويلية 1961 والمتعلقة باستقالة القيادة المذكورة وبيان الأسباب والحيثيات الداعية إليها.

47- *المجاهد*، العدد 91، مارس 1962.

التحسن في الوضع العسكري ثابت، وإخفاق مخطط شال في تحقيق الانتصار العسكري النهائي ثابت أيضا، وقد شهد به حتى الضباط الذين شاركوا في تنفيذه.

كتب جاك أرنو، Jacques Arnault ، عن الموضوع في جانفي 1961 مقالا جاء فيه :

> إذا كان مؤكدا أن *لالان* قد أرغم منذ عامين على الدفاع، فإنه أقام هذا الدفاع بحيث تمكن من الحفاظ على القسم الأساسي من قواته العسكرية وقدراته السياسية، العنصر الأساسي لميزان القوى في حرب من هذا النوع...إلى درجة أن *لالان* صار الآن يملك العناصر الضرورية لهجوم مضاد بمقدوره أن يضع الجيش الفرنسي في وضع صعب[48].

وفي أواخر 1960 كتب أحد الضباط الفرنسيين بالجزائر :

> يملك *لالان* الوسائل اللازمة لمواصلة حرب الأنصار التي يخوضها، لأن هذا النوع من الحروب هو الذي يمكنه فيه أن يعوض إلى حد كبير ضعفه النسبي بميزاته الخاصة، من مرونة وخفة وحركية وتقشف، وقدرة على التحمل ومهارة في المناورة ومعرفة جيدة بالأرض...الخ. وبهذا يتمكن من أن ''يجمد'' أو يفرض حالة اللاأمن على قوات متفوقة عليه تفوقا ملحوظا من الناحية العددية،

48-J. Arnault, « Mourir pour Bao Dar », in *La Nouvelle Critique*, no. 122, janvier 1961.

وغارقة في بنى هيكلية جامدة للغاية، فخفة الحركة لديه تسمح له بالنجاة من التدمير... وهذا هو السبب في كون ''العمليات الكبرى'' التي مرت في صيف 1959 وخريفه لم تبلغ الهدف المنشود : *لالإلان* لم يدمر وقلاعه التقليدية في جبال الونشريس والقل لم يتم النيل منها بصورة فعالة[49].

– حتمية الحل السياسي التفاوضي

نجم عن سقوط وهم الحل العسكري تزايد قناعة ديغول بضرورة الانطلاق في اتجاه الحل السياسي للمشكلة الجزائرية. في هذا الصدد كتب الجنرال دولاك Dulac الذي كان بجانب موريس شال في عملية *جوميل* : "مخطط شال لم ينجح إلا جزئيا، ونصف الإخفاق الذي مني به هو الذي عزز نية الجنرال ديغول في إنهاء المشكل بسرعة عن طريق التفاوض"[50].

في إطار العلاقة بين مخطط شال والتوجه الديغولي نحو الحل السياسي، يمكن اعتبار إعلان مبدأ تقرير المصير في سبتمبر 1959 أحد الآثار السياسية المبكرة لذلك المخطط الذي كان في ذلك الوقت لا يزال مستمرا في الميدان، ولكن كانت قد مرت عليه فترة سمحت بإجراء تقييم أولي لنتائجه السياسية المتوقعة. في الحقيقة، بين تقويم الوضع العسكري في أوت 1959، أن مخطط شال حقق نتائج عسكرية كبيرة لأنه افتك المبادرة من جيش التحرير في المناطق التي مر منها، لكنه لم يحسم الموقف العسكري نهائيا. فهو لم يقض تماما على "جيوب المقاومة" التي كانت تتجدد بمجرد نقل العمليات إلى مناطق أخرى. وتبين كذلك أن الأمر يحتاج إلى وقت طويل بالنظر إلى الآجال المحددة. بالنسبة

49-J. M. Darboise, *Officiers en Algérie*, Maspero, 1960, pp. 15-16.
50- André Dulac, *nos guerres perdues*, Fayard, Paris, 1969, p. 130.

إلى هذه الأخيرة كنا قد رأينا أن رئيس الحكومة ميشال دوبري قد حددها بشهر جويلية 1959. في شهر جويلية هذا كان مخطط شال قد مر بولايتين فقط، أي بقيت له أربع ولايات كاملة، ما يعادل تقريبا ثلثي مساحة التراب الجزائري.

لذلك يمكن القول إن مخطط شال في أوت 1959 كان قد حقق هدفا واحدا، لكنه مهم، من الأهداف العسكرية التي أسندت إليه، وهذا الهدف هو إضعاف جيش التحرير في المناطق التي شملها إلى درجة أبعدت في الوقت نفسه خطر الهزيمة العسكرية الذي كان مستحوذا على عقول القيادات العسكرية الفرنسية بما في ذلك ديغول نفسه. ثم إن هذا كان قد تم بتكاليف باهظة وأساليب أثارت استنكار متزايدا في الرأي العام الدولي، مساهمة بذلك في مضاعفة عزلة فرنسا دوليا.

من ناحية التأثير في التطور العام لحرب التحرير، ساهم مخطط شال بقدر كبير في وضع المعادلة العامة لحرب التحرير على صورتها النهائية، وهي الصورة التي حددت صيغة نهاية تلك الحرب واستقلال الجزائر. موضوع مخطط شال يثير في الواقع موضوع دور العامل العسكري بكامله في تطورات المرحلة الأخيرة من الحرب. بعد تنفيذ هذا المخطط اتضحت صورة الموقف في الجزائر بالنسبة إلى ديغول وإلى الجبهة. في ما يخص ديغول، بعد تنفيذ مخطط شال لم يعد في مقدور العمل العسكري الفرنسي أن يحقق أكثر مما تحقق، وصار واضحا أن حل المشكلة لن يتم بالقضاء على العمل المسلح لجيش التحرير وفرض الصيغة السياسية التي يسمح بها الانتصار العسكري النهائي، أي صيغة من "نظام

المشاركة" والاستقلال الذاتي، يقوم الطرف الفرنسي بتحديد ملامحها، وحده أو بمشاركة محدودة من *الجبهة*، إن قبلت ذلك، وهو ما كان في جميع الأحوال مستبعدا من طرف هذا التنظيم المتمسك بحل الاستقلال عن طريق التعامل معه وحده. بعد استبعاد هذا الاحتمال نتيجة إخفاق العمل العسكري في إحراز النصر الكلي، بقي البديل الوحيد هو التوجه نحو حل سياسي عن طريق التفاوض. باختصار، أهم النتائج السياسية لمخطط شال تمثلت في كونه أسقط وَهمْ الحل العسكري، وعزز إيمان الرئيس الفرنسي بضرورة التوجه نحو الحل السياسي التفاوضي والإسراع في طريقه. من ناحية *الجبهة*، وبعد التراجع الكبير الذي سببه مخطط شال لجيش التحرير في الداخل، صار واضحا أيضا أن الحل سيكون سياسيا، تفاوضيا ، فراحت تعمل لتوسيع الدعم الدولي للقضية الجزائرية بهدف الضغط على ديغول لكي يقبل المفاوضات. تفاعلات الحرب وآثارها في الفترة اللاحقة رسخت القناعات المذكورة لدى الطرفين وجاءت بهما إلى طاولة مفاوضات توجت بانتهاء حرب التحرير واستقلال الجزائر.